اصول التعليم الحديث

تمهيد

خضع التعليم لناموس الارتقاء العام كما خضع الانسان والعلم والتمدن فقد مرّت عليهِ ادوار تدرّج في اثنائها من ابسط حالاتهِ الى ما هو اسمى الى ان وصل الى ما هو عليهِ في هذه الايام . فما تراهُ اليوم في المدارس والكليات والجامعات من اصول التعليم الراقية ليس اين يومهِ بل هو نتيجة ابحاث ومجادلات اشتغل بها العقل الانساني منذ ابتدأ التمدن الى اليوم

ولما كان تاريخ التعليم من الاهمية بمكان وكان على كل من اخذ على عاتقهِ القيام بهذه المهمة ان يقف على ذلك رايت ان آتي على تاريخ التعليم الحديث مع القاء نظرة عامة على تاريخ التعليم من اول امرهِ مستنداً في كل ذلك على ما كتبهُ كبار علماء التهذيب الذين هم العمدة في هذا الباب والكعبة التي يحجُّ اليها كل من اراد التوسع في هذا الموضوع(١)

لقد قسم العلماء ازمنة تاريخ التعليم الى ادوار فسموا الدور الاول منها بالتعليم الابتدائي وهو لا يتجاوز حد « التقليد » كتقليد الصغار حركات من هم اكبر منهم سناً . وهذا الدور هو المعوّل عليهِ في كل امة لتعليم الاطفال غير ان المتوحشين الذين لم يكن عندهم مدارس اقتصروا عليهِ ولم يزيدوا شيئاً

وقد مضى زمان كانت فيهِ هذه الطريقة ارقى طرق التعليم اذ كانت الطريقة الوحيدة المعروفة ولكن ذلك لم يلبث طويلاً حتى قام اناس من بين المتوحشين يعرفون اشياء لا يعرفها باقي اخوانهم ككلمات رمزية او اشارات تبعد الارواح الشريرة ولما رأوها نافعة لم يبوحوا بها الاّ لاقاربهم واهلهم وهؤلاء هم الافراد الراقون او الكهنة الذين زادوا عليها الطقوس والرسوم وصاروا هم المعلمين وصارت بيوتهم المدارس فكان التعليم اذ ذاك محصوراً في فئة قليلة من الناس لا يتعداها الى سواها . فقويت هذه الفئة وقيّدت افكار الناس ولعبت بهم كما شاءت مستندة في كل ذلك على السحر والكهانة والشعوذة

لما ارتقى الانسان وابتدأت تتألف الجماعات وسنت بعض النظامات السياسية ووضعت الحروف الهجائية واللغة الكتابية ظهر ان للفرد اعتباراً وشأناً خاصاً اذ منهُ تتألف الجماعات

---

(١) قد عوّلنا في كتابة هذه المقالة على كتب اكثرها انكليزي منها

(1) The Cyclopedia of Education. (Monroe)
(2) History of Education & Source Book (Monroe).
(3) Davidson History of Education.
(4) Horn's Philosophy of Education.

وظهر ان الجماعة يجب ان تعرف ماضيها وتستفيد من اغلاطها وتسعى وراء كل واسطة لحفظ كيانها · فقام التعليم الشرقي وكانت العناية مصروفة فيهِ الى الامور الآتية (١) حفظ اللغات واصطلاحاتها (٢) تعليم الانسان نوعاً مخصوصاً من التعاليم السرية (٣) التسلط على الامة بذلك · ولكي تتسنى لهم هذه الامور وضعوا زمام التعليم في يد فئة قليلة من الكهنة الذين اتقنوا القراءة والكتابة وعرفوا كل النظامات والقوانين المسنونة · لكن ظهر تقصير التعليم الشرقي في اربعة امور (١) التشديد في اهمية اللغة (٢) تكريم الماضي (٣) عبادة الاسلاف (٤) تقييد شخصية الفرد بشخصية الجماعة فترتب على ذلك النتائج التالية (١) اخضاع العقل للسان (اي اللغة) (٢) الحط من شأن الحاضر · فابتدأ العقل الشرقي حينئذٍ يخلق فردوساً بعد الموت وجنة بعد الانتقال من هذا الشقاء فكنت تراهُ تارة ينشد الاشعار مفتخراً بماضيهِ واخرى سابحاً في لجج الفلسفة مفكراً في مصيرهِ لكن قلما كان يهتم باصلاح حاضرهِ (٣) عدم الاعتماد على النفس

التعليم اليوناني

كان التعليم الشرقي الذي بدت نتائجهُ على اوضح حالاتها في الصين مبنياً على اخضاع الفرد والتسلط عليهِ · ثم قام التمدن اليوناني فاجتهد اليونان ان يحرّروا الانسان من كل تسلط غير مشروع ويقوّوا فيهِ عاطفة الفردية فيعرف نفسهُ انهُ كائن حر وان ليس لاحد ان يحرمهُ هذه الحرية · وقبل الوصول الى هذه الغاية تقلّب العقل اليوناني في ادوار كثيرة · ولم يتم ذلك لليونان الاّ بعد اختلاطهم بالشعوب الاخرى فاخذوا يستبدلون نظاماتهم القديمة باخرى ارقى منها ترفع من شأن الفردية · ولذلك كان من كمّ فلاسفة اليونان المتأخرين وعلى الاخص سقراط وافلاطون وارسطوطاليس ان يوفقوا بين القديم والحديث وان يضعوا اصولاً موافقة للتعليم فكانت نتيجة ذلك ان وضعت المبادئ التي بنى عليها العلم الحديث نظاماتهِ وقوانينهُ · وبقي الميل الى تقوية شأن الفرد الى ان داستهُ اقدام الرومانيين

التعليم الروماني

مال فلاسفة اليونان الى الفلسفة النظرية فهاموا في عالم التصورات · اما الرومان فكانوا امة عملية فقوّوا التعليم العملي وجعلوا مقياس صلاحية الشيء منفعتهُ وتأثيرهُ ولهذا نظروا الى اليونان كامة ذات احلام ورؤى كما ان اليونان نظروا الى الرومان كامة بربرية اعتمادها على القوة وليس فيها شيء من الشعور والتصور · وجعل الرومان البيت المدرسة الاولى منشأ التربية والعلم فيهِ تتأسس الفضيلة وتنشأ التربية الصحيحة · ولما كان جلّ اعتماد اليونان على الفلسفة النظرية لم يكن للعامة من شأن يذكر في امر التعليم بل بقي العلم محصوراً في طبقة مخصوصة منهم

بخلاف الرومان فقد كان لكل فرد من افراد الامة حظ وافر منهُ. وزها العلم وتقدم لما عظم شأن الرومان. ولكن لما اخذت الامبراطورية في الانحطاط وسرى السم في جسدها وتسلط البرابرة على القسم الغربي منها تأخر العلم تأخراً عظيماً وانحطت اخلاق الامة وفسدت تربيتها

ولقد ظهرت آراء الرومانيين في التعليم في ما سنّوهُ من الحقوق والواجبات فكان للروماني خمسة حقوق بحسب ما سنّتهُ الشريعة الرومانية. (١) حق الوالد على ولدهِ. (٢) حق الرجل على امرأتهِ. (٣) حق السيد على عبدهِ. (٤) حق الحر على آخر في احوال تبينها الشريعة. (٥) حق الرجل على املاكهِ. فكان الحر ينال هذه الحقوق بالولادة. وبعد القرون الاولى من تأسيس رومية صار الانسان ينالها اذا تبنّاهُ رجل حر او نال الجنسية الرومانية

التعليم في القرون الوسطى

بعد ان استوى الملك قسطنطين على عرش المملكة الرومانية صارت الديانة المسيحية ديانة الحكومة الرسمية وانتشرت في كل المملكة وبعد ان كانت السلطة في يد الحكومة اخذت تتسرب شيئاً فشيئاً الى يد الكنيسة حتى صارت في المرجع الاعلى في جميع الشؤون المدنية والكنسية واخذت التعاليم الوثنية تتقلص امامها لانها جاءت بتعاليم جديدة روحية وتهذيب حقيقي عقلي الامر الذي لم يكن يتحقق في التعاليم اليونانية والرومانية. وكان في وسع كل رجل ان ينال حظاً وافراً من هذا التعليم لانهُ كان مبنياً على الاديبات لا على العقل والذكاء كما كان عند اليونان. ولقد كانت الديانة المسيحية في اول نشأتها على اتفاق تام مع التعليم المدرسي ولكن لما امتدت سلطتها الى جميع الاقطار جعلت تحتقر كل شيء وحرمت الانسان من التوسع في البحث والتعليم. فقام الرهبان وقضوا الجانب الاكبر من اوقاتهم في المطالعة والدرس والكتابة والتأليف. ولما احتاجوا الى المجادلات الدينية رأوا ان لا بدَّ لهم من علم المنطق والفلسفة وهكذا نشأت الفرقة المعروفة بالمدرسيين. ثم لما تولد في اوربا النظام الاقطاعي ورأى الناس انفسهم مضطرين الى حمل السلاح اخذ التعليم يتكيف بصورة اخرى فنشأ التعليم المدعو بالتعليم العسكري وهو ان يمرن الانسان نفسهُ على الشجاعة والفروسية ليتمكن من انجاد سيدهِ وقت الحرب. وبعد ان انقضى القرن الثالث عشر ظهرت التعاليم بمظهر جديد وكلها ترمي الى الضغط على العقل والحرية

زمن الاصلاح — هدم القديم ومحاولة البناء على اساس فلسفي

تقدم القول ان التعليم في القرون الوسطى كان يرمي الى الضغط على حرية الافراد والعقل فقيام النشأة الجديدة لمحاربة هذا الميل كان نتيجة طبيعية. ولقد وقف ابطال هذا

الدور حياتهم على محاربة سلطة الكنيسة والحكومة ونظام الهيئة الاجتماعية التي ولدتهُ القرون الوسطى . اما الغايات التي وجهوا انظارهم اليها في كل تعاليمهم فهي (١) حقيقة الحياة فوافقت آراؤهم في ذلك اراء فلاسفة اليونان الذين اعاروا هذه المسألة جانباً عظيماً من الاهمية بخلاف ما كان عليهِ قادة الافكار في القرون الوسطى . (٢) عالم التصورات الداخلي والفرح في الحياة واللذة في المعيشة واعطاء الجمال حقهُ من الاهمية . وبديهي انهم لم يكونوا ينظرون الى ذلك من الوجهتين الدينية والفلسفية بل من الوجهة العالمية . (٣) الاشتغال بالامور الطبيعية فأدت الاولى الى درس آداب اللغتين اليونانية والرومانية والثانية الى اتقان الحفر والنقش والتصوير والثالثة الى الاكتشافات الجديدة . وخلاصة القول ان دور النشأة الجديدة وضع اساس التهذيب كما نراهُ اليوم وليست الادوار الثلاثة الآتية الا تكملة لهُ . اما اهم رجال هذا الدور فهم بتراركس وبوكاتشيو في ايطاليا . ويوحنا وريدولف ويوحنا ركلين في المانيا ورئيس هذه النهضة الاكبر اراسموس

دور الاصلاح

يختلف الدور السابق عن هذا الدور بروحهِ ونتيجتهِ . وما الاصلاح الاَّ نتيجة امتداد النشأة الجديدة في شمال اوربا حيث اجتهد المصلحون في اصلاح الكنيسة والهيئة الاجتماعية من الوجهة اللاهوتية . ويجدر بنا ان نذكر بعض الفروق بين الشعوب اللاتينية والجرمانية المعروفة بالطوطونية . فاللاتين كانوا يميلون الى درس الآداب الوثنية والجرمان الى درس الآداب المسيحية . اولئك اهتموا بالتهذيب الشخصي وهؤلاء بتهذيب المجتمع دينياً وادبياً . كان تمدن اللاتين مبنياً على التقاليد وتمدن الجرمان على الديانة المسيحية . عقل هؤلاء كان ميالاً الى الدين وعقل اولئك كان يسعى وراء المنفعة الذاتية . لذلك لم يكن ابتداء الاصلاح في المانيا ومعاضدة ملوكها للمصلحين بالامر الغريب

اما اهم ابطال الاصلاح فهم يوحنا كافينوس (١٥٠٩ — ١٥٦٤) كان منهمكاً في حياتهِ بالمجادلات اللاهوتية ولم يُعر التعليم جانباً من الاهمية الاَّ في السنين الاخيرة من عمرهِ

يوحنا زونكلي . (١٤٨٤ — ١٥٣٢) . اعظم المصلحين في سويسرا . قوّى التعليم الابتدائي . وكتب كتاباً في كيفية تربية الاولاد في الديانة المسيحية

مرتينوس لوثيروس (١٤٨٣ — ١٥٤٦) اعظم المصلحين بلا جدال ومصدر النهضة الالمانية . انحصرت تعاليمهُ في ثلاثة وجوه . ضد الحكومة — وضد الكنيسة — وضد التعليم الكنسي . والى القراء نقف من اقوالهِ في وجوب التعليم . « هب ان لا روح ولا سماء ولا جهنم

فهذا لا ينفي ان التعليم ضروري لقضاء الحاجات على الارض كما قال بذلك فلاسفة اليونان والرومان. العالم في احتياج الى رجال متعلمين ليسوسوا البلاد بالعدل والحكمة والى نساء متهذبات يربين اولادهن التربية الحسنة ويعتنين بامور بيوتهن. انا اكره المدارس التي يقضي فيها التلميذ عشرين او ثلاثين سنة في تعلم امور لا اهمية لها . ان عالماً جديداً قد اشرق علينا وقد لبس كل شيء ثوباً جديداً فانا ارى ان يرسل الولد ساعة او ساعتين في النهار الى المدرسة ويقضي بقية يومه في البيت يتعلم صناعة لان الصنائع والعلوم يجب ان تسيرا جنباً الى جنب »

وقد علم ان الحكومة يجب ان تلزم الاهالي بارسال الاولاد الى المدارس كما انها تلزمهم بتأدية الخدمة العسكرية

فيليب ملانكثون (١٤٧٩ — ١٥٦٠) دُعي بمعلم المانيا ولم يطلق عليه هذا اللقب اعتباطاً اذ لم تبقَ مدرسة في المانيا الاَّ واتبعت خطتهُ في التعليم او مشورتهُ في القاء الدروس ولم يتم معلم مشهور الاَّ واخذ عنهُ . وقد الَّف كتباً مدرسية كثيرة كان يعتمد عليها في المانيا مدة طويلة . فالتعليم الابتدائي اذاً مديون للاصلاح

الدور المعروف بدور الفلاسفة الحقيقيين (اي المذهب القائل بحقيقة الاشياء)

كانت الحركة في القرن الخامس عشر شخصية وتثقيفية . وظهرت بالكتابات والحركات العسكرية . وفي القرن السادس عشر اصلاحية وادبية فظهرت في الدين والاجتماع . وفي القرن السابع عشر اتجهت نحو الفلسفة والمسائل العلمية ولذلك يمكننا ان ندعو هذا الدور بالدور العلمي

انقسم العلماء في هذا الدور الى قسمين الاول العلماء الحقيقيون المختصون بالعلوم الادبية اعظمهم اراسموس وملانكثون والثاني الحقيقيون الاجتماعيون وهؤلاء قللوا من اهمية المدارس وجعلوا اهم وسائط التعليم الارتحال في الارض والمعاشرة والاحتكاك مع الناس

وراقم علم هذا الرأي مونتانيه . وقد ظهر في هذا الدور فرنسيس باكون (١٥٦١—١٦٢٦) واضع الفلسفة الحديثة وهادم اركان الفلسفة القديمة . ولقد علم هذا الفيلسوف ان العلم لا يقوم بحفظ القواعد الصرفية والنحوية واستظهار بعض الكلمات ولا بالعلوم اللاهوتية بل بالعلوم الطبيعية فهي وحدها يجب ان تسود في الكون واليها يجب ان ترجع الفلسفة . فباقوالهِ هذه فتح باباً جديداً ومهد سبيلاً واسعاً للاكتشافات التي حدثت في القرن الثامن عشر والتاسع عشر

ولف كانك رنك (١٥٧١ — ١٦٣٥) كتب هذا العالم لممثل المملكة الالمانية في فرنكفورت ما يأتي :

« استطيع ان اعلم اللغة اللاتينية واليونانية باسلوبي الجديد في مدة قصيرة فيتدرب فيها التلميذ احسن مما يتدرب في مدارسنا الحاضرة . يجب ان تكون اللغة العامية — اي الوطنية — اساس كل علم ويجب ان يعلم التلاميذ الصنائع مع العلوم . يجب ان تسود في المانيا لغة واحدة ولهجة واحدة لاغير » . ولكن هذا العالم لم يصادف النجاح التام في حياته

اما مؤسس تاريخ التعليم الحديث فهو يوحنا عاموس كومنيوس (١٥٩٢ — ١٦٧٠) ويمكننا ان نجمع آراء هذا الفيلسوف بالتعليم في هذه الخلاصة

« القصد من التعليم هو التمتع بالسعادة التامة وهذه ينالها الانسان بقوة الارادة ومعرفة النفس وبالتالي معرفة كل شيء » وقال في التعليم ما يأتي :

« يجب على الانسان ان يفقه العالم جيداً ويضع كل قسم في مكانه دون اختلاط ولا امتزاج » . ولذلك ترى كلامهُ في كل كتبهِ المدرسية آخذاً بعضهُ برقاب بعض . ويجدر بنا ان نذكر القضايا التسع التي وضعها هذا العالم في التعليم

(١) كل ما يجبُ ان يُعرف يجب ان يُعلَّم صريحاً للتلميذ لا بالرموز ولا بالامثال

(٢) يجب ان تلقى الدروس على طريقة تقربها من الافهام وليس على طريقة معقدة صعبة

(٣) كل ما يعلَّم يجب ان يكون ذا نفع ومن الاشياء التي يستعملها التلميذ كل يوم والواقعة تحت حواسهِ

(٤) كل ما يعلم يجب ان يعلم بالرجوع الى طبيعتهِ الحقيقية واصلهِ اي بواسطة اسبابهِ وعللهِ

(٥) يجب ان تقدَّم مبادئُ الاشياء العمومية في التعليم على التفصيلات والشروح الطويلة

(٦) كل شيء يجب ان يعلم ابتداءً من رتبتهِ ومركزهِ وعلاقتهِ بالاشياء الاخرى

(٧) يجب ان تعلم كل الاشياء بالتعاقب ولا يجوز ان يعلم اكثر من شيء واحد في وقت واحد

(٨) يجب ان لا يترك المعلم شيئاً قبل ان يفهمهُ التلميذ جيداً

(٩) يجب ان يدقق تمام التدقيق في الفروق التي تُرى بين الاشياء لكي تكون المعرفة حقيقية واضحة

وقد اشتهر هذا المعلم ايضاً بما وضعهُ من الكتب المدرسية حتى انها كانت الغاية في هذا الباب وفاقت كل كتب الذين تقدموهُ وعاصروهُ . والسبب في نجاحهِ انهُ كان معلماً فكتب ما كتب عن اختبار واستقراء . وقد ذكر انهُ يجب ان تكون المدارس نوعين

(١) مدرسة الاطفال . فكأنهُ اشار بذلك من طرف خفي الى بستان الاطفال (كندركارتن) كما سيجيء (٢) المدرسة العمومية . ولم ينس واجبات الامهات فكتب كتاباً مهماً في التربية

الدور المعروف بالتمرين

كانت اهمية هذا الدور قائمة بامور ثلاثة . (١) ان العبرة ليست بالمواضيع العلمية التي يتلقنها التلميذ بل بالطريقة التي تتلى بها . (٢) ان الاسلوب الصحيح يرقي القوى العقلية الى درجة تستطيع بها ان تفهم المواضيع فهماً صحيحاً . (٣) ان العقل مركب من قوى كثيرة اهمها الذاكرة والادراك وان هاتين يجب ان ترقيا بواسطة التمرين العلمي . وقد صادفت هذه النظريات قبولاً من كل العلماء ولا يزال كثيرون منهم الى اليوم يؤيدونها بآرائهم

اما ممثل هذا الدور فهو يوحنا لوك (١٦٣٢ — ١٧٠٤) . كانت غاية هذا الفيلسوف في حياتهِ محبة الحق فقد قال ان الدليل الى الحق وكل عمل في الحياة هو الادراك القائم على التمرين العقلي . وقد وافق باكون ايضاً في ان كل معرفة تأتي من الاختبار . ولم يكن التهذيب عند لوك سوى عمل عقلي تكيفهُ العادة بواسطة التمرين وهذا لا تقوم بهِ الكتب وحدها بل يلزم لهُ التأمل والافتكار العميق . وقد ذكر في موضع اخر من كتاباتهِ ان القصد من التعليم هو الفضيلة والحكمة

وقال « ان العقل السليم في الجسم السليم » . فمتى يحاول الانسان ان يرقي عقلهُ مادام جسمهُ معتلاً واذا كان الجسد يستطيع ان يحتمل المشقات فالعقل لا يستطيع ان يحتملها » وقد وضع اساس الفضيلة والاستحقاق في هذه الكلمات « ان يكون الرجل قادراً على انكار نفسهِ وشهواتهِ وتتبع ما يرشدهُ اليهِ عقلهُ ولو قادتهُ معدتهُ الى غير ذلك وهذا لا يقوم الاَّ بالسعادة وبالتمرين ولذلك رأى ان يمنع الاولاد من رغائبهم وهم في المهد وان يعلموا انهم لا يعطون شيئاً لمجرد رغبتهم فيهِ بل لانهُ موافق لهم » . وقد ذكر ان الغاية من التعليم ان يؤهل الشاب عقلهُ لفهم كل ما يلقى اليهِ من العلوم لا ان يتقن علماً واحداً فقط . اما اهم العلوم التي يجب ان يتلقاها التلميذ فهي الرياضيات لانها تمرن العقل . وقد قال في هذا الشأن « نحن خلقنا لنكون اذا اردنا مخلوقات مفكرة ولا يؤدي الى ذلك الاَّ العمل والتمرين . وقد خصصت بالذكر الرياضيات لانها واسطة للتمرين والممارسة . وبواسطتهما يتأهل العقل لفهم كل العلوم التي يشتغل بها »

هنا انتهى تاريخ التعليم القديم وسنأتي على تاريخ التعليم الحديث

بولس شحاده